

جدلية المكاني والزمني في الشعر العربي القديم "المفضليات" نموذجا
Dialectic of Time and space in the old Arab poetry
"el-mufadhaliat" as a case in point

د. عمارة الجداري.

أستاذ أول مُمَيَّر للتعليم الثانوي/ بسوسة تونس

amarajeddari@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2018/11/17

تاريخ القبول: 2018/06/25

تاريخ الإرسال: 2017/11/10

ملخص البحث

تكمن في النص الشعري، شأن كل عملية إنشائية، حاجة إلى ضرب من اتحاد الزمن والمكان للتعبير عن تجربة مكانية-زمانية. والشاعر يكسب الأمانة في نصه أبعادا زمنية متنوعة. وكان المكان باكتسابه امتداده الزمني مسهما في العملية الإنشائية. فينهض بالمعنى الشعري ويحفظ مآثر الشاعر الذاتية. ونحاول في هذا المقال الوقوف على أبعاد المكان الزمانية وتأثيرها على بناء الخطاب الشعري ودلالاته. الكلمات المفتاحية: المكان - الزمان - الشعر العربي القديم - "المفضليات".

Abstract

Like any composition in poetry there lies a need for same kind of a time-space union to verbalize a spatiotemporal experience. Indeed the poet grants space in his text various temporal dimensions. Thus, with its temporal stretches, space contributes to the composition process. It serves the poetic meaning and saves the poet's personal attributes...

In this paper, we will try to study the temporal dimensions of space and its effects on the texture of discourse as well as its significance.

Key words: space; time; old Arab poetry; «elmufadhaliat»



I - مدخل:

ينهض المكان في الشعر العربي القديم ببعده الزمني فريد. وتشكل "المفضليات" 1 مدونة شعرية مهمة تستجيب لهذا البحث. وسنفتتح هذا البحث بجهاز نظري نحدد فيه المكان والزمن والعلاقة بينهما ونردف ذلك بتعريف "المفضليات" باعتبارها مدونة معتمدة.

1 - المكان:

المكان عند أهل اللغة الموضع في قول الفيروزبادي "والمكان الموضع، وج. أمكنة وأماكن".² ووزنه [مفعل] في قول ابن منظور "والدليل على أن المكان مفعل أن العرب لا تقول في معنى هو مني مكان كذا وكذا إلا مفعل كذا وكذا، بالنصب..."³ ويجمعه على أمكنة وأماكن في قوله "والمكانة المنزلة عند الملك. والجمع مكانات، ولا يجمع جمع التكسير (...). والمكان الموضع، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع..."⁴ وأجراه البعض على [فعال] حسب قوله "مكان في أصل تقدير الفعل مفعل، لأنه موضع لكيثونة الشيء فيه، غير أنه لما كثر أجرؤه في التصريف مجرى فعال، فقالوا: مكاناً له وقد تمكن، وليس هذا بأعجب من تمكن من المسكن (...). يبطل أن يكوه مكان فعلاً لأن العرب تقول: كُن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك؛ فقد دل هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه؛ قال: وإنما جمع أمكنة فعاملوا الميم الزائدة معاملة الأصلية لأن العرب تشبه الحرف بالحرف..."⁵.

ولئن تراوحت رؤى اللغويين بين الاتفاق والاختلاف في مقارنة المكان لغويًا. فإنه في النص الشعري قد حظي بدراسات مختلفة قديما وحديثا.

2 - الزمن:

الزمن مبحث مهم، يتحدد في ذاته لغويًا باعتباره إسمًا لقليل من الوقت أو كثيره⁶، وممكن فرادة من حيث تداخل جملة التعريفات والمفاهيم ومحدوديتها، إذ كثيرا ما صعبت الإحاطة به باعتباره مفهوما محددًا تحديدا تامًا لشموليته وشفافيته لذلك ظلّ الفلاسفة والعلماء يتوارثون تحديد أرسطو القائم على اعتبار الزمن "كمية الحركة بحسب المتقدّم والمتأخّر" إلى حدود القرن التاسع عشر عندما أشار القديس أغسطينيون إلى أنه لا يعرف الزمان ما لم يسأله أحد عنه ولكن متى سئل استبان له استحالة معرفته.

فتفتح ذلك مقاربات مختلفة للزمن لتحديد نظمه ومكوناته. وتنوّعت الدراسات وتناولت الزمان من وجهات مختلفة فتأتى لنا الزمن السيكولوجي والزمن الرياضي والزمن الفيزيائي والإطار الفلسفي لمفهوم الزمن...⁷

3 - علاقة المكان بالزمن:

إذا ما كان الزمن علامة 8 ومظهرها حركيًا تطورًا بالأساس قائمًا على تنالي الآتات (Des instants 9)، فإنّ المكان باعتباره التجسيد المرئيّ للأشياء يتمثّله بعدا من أبعاده تقوم عليه العمليّة الإبداعية. فتتحدّد بذلك علاقة بين المكان والزمان قائمة على التفاعل. وترتدّ هذه العلاقة إلى العالم الرياضي الشهير هيرمان منكوفيسكي¹⁰ H.Minkoveski الذي يعتبر أول من صرّح بصِلّة الزمن بالمكان سنة ثمان وتسع مائة وألف (1908). واحتوى هذه الفكرة الفيلسوف الأنقليزي جون لوك¹¹ J.Lock وتمثّلتها النظرية النسبية إلى أبعد حدودها فعدت علاقة المكان بالزمان تتجاوز مجرد الارتباط والوصل في حدود معروفة إلى الاتّحاد.

وانطلق البعد الزمنيّ للمكان تبعًا لذلك من تحديده لجملة نقاطه "من حيث أن جزءا من الزمان هو جزء من المكان وبالعكس والنقطة في المكان هي النقطة في الزمان"¹² فكان التأكيد على العلاقة بين المكان والزمان يصل إلى استحالة التفريق بينهما إذ "لا يمكن تصوّر مكان بدون زمان ولا زمان بدون مكان وبصورة دقيقة لا يمكن تصوّر كلّ على حدة"¹³. غير أنّ هذه العلاقة الوطيدة يغيب صداها في بعض الدراسات التي تفصل المكان عن الزمان أو العكس وتجعل اهتمامها مبحثا دون آخر رغم الأبعاد التي يحقّقها التجسيد المكانيّ للزمان.

ومن الدراسات التي نذكرها في هذا المجال بحث صلاح عبد الحافظ "الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي"¹⁴ وبحث الدكتوراه الذي أنجزه الأستاذ علي الغياضوي "الإحساس بالزمان في الشعر العربي القديم"¹⁵.

فقد فصل العمل الأول الزمان عن المكان وتحدّث عن أثر كل منهما على حدة دون الوقوف على العلاقة بينهما والملاحم التي يتلمّس فيها البعدان نفس التحقق. أما العمل الثاني فقد تناول الزمان من خلال المعاني الزمنية والألفاظ الدالة على الزمان. ورغم أهمية هذا العمل وقيّمته المستفيضة وإشارته إلى بعض الملاحم المكانية للزمان¹⁶ إلاّ أنّه لم

يتناول البعد المكاني للزمان لا سيّما أن المكان في كثير من المواطن يمكن أن يختزل إشارات زمانية متنوّعة.

وتبعاً لإقرارنا بالعلاقة الوطيدة بين الزمان والمكان نقارب حضورهما في النصّ الشعريّ. ونباشره من وجهة أنّ للمكان حضوراً مخصوصاً يتشكّل زمانياً على طرائق شتى سواء كان حضوراً قائماً على التوازي بين هذين العنصرين أو حين يكون الزمن عنصراً مكتملاً للمكان فيعبر عن وجوده. فتكون العمليّة الإنشائيّة رهينة التعبير المكاني عن معانيها المختلفة وفق تأثير الزمن فيها.

4 - "المفضليات":

تمثّل المفضليات مجموعة مختارة من أشعار العرب للمفضّل الضبي¹⁷. وتعبّر عن فترة زمنية تمتدّ من بداية الإنشاء الشعريّ العربيّ حتّى منتصف القرن الأوّل الهجريّ. وتعدّ أقدم مجموعة صنعت في اختيار الشعر العربيّ، إذ كان الرّواة قبلها يصنعون أشعار القبائل. ولئن لم تحظ بدراسة شافية¹⁸ فإنّها مثلت مستندا لبعض الدراسات المتناولة للشعر العربيّ ومقاربة معانيه. وتحتوي "المفضليات" مائة وثلاثين (130) نصّاً بين قصيدة وقطعة¹⁹ بعد أن أضاف إليها المحقّقان أربعة نصوص من روايات مختلفة²⁰ مثل المفضلية الأخيرة التي تمثل إعادة للمفضلية الواحدة والثمانين. إلّا أنّ الرواية قد اختلفت بالزيادة والنقص والتقديم والتأخير²¹ ومثّل عدد نصوص "المفضليات" إشكالا إذ لئن صمت بلاشير عن ذكر العدد في قوله "نصوص شعرية وردت أحيانا في شكل قطع وغالبا في شكل قصائد تبدو تامة"²² فإن بروكلمان يرى أنّها "مائة وست وعشرون أو مائة وثمان وعشرون قصيدة"²³ ويعني بالقصيدة النصّ بصفة عامّة وتواتر هذا الرأي في المؤلّفات القديمة بداية من "الفهرست" لابن النديم²⁴ وهو أنّ "المفضليات" مائة وست وعشرون أو مائة وثمان وعشرون قصيدة قد تزيد وقد تنقص تتقدّم فيها وتتأخّر بسبب الرواية عنه (المفضّل الضبيّ) والصّحيحة التي رواها ابن الأعرابيّ وهي أشعار مختارة جمعها المفضّل للمهديّ²⁵.

وتظلّ "المفضّليّات" مدوّنة شعريّة مهمّة تكتسب قيمتها من مستويين رئيسين. يتمثّل الأول في كونها تغطي تجارب الشعر العربي القديم من البدايات إلى حدود القرن الثاني تقريبا. ويتمثل الثاني في كون هذه المدوّنة تعدّ من المختارات والاختيار في ذاته عمل فنيّ متميّز.

II - المكان والتشكّل الزمنيّ في النصّ الشعريّ:

تكمن في النصّ الشعريّ -شأن كلّ عمليّة إنشائيّة- حاجة إلى ضرب من اتّحاد الزمن والمكان للتعبير عن تجربة زمنيّة مكانيّة. فبالإضافة إلى جماليّة العمل الفنيّ أي ما يتمتّع به من ثراء جماليّ يصبح هذا العمل ناقصا إذا افتقر الحسّ الزمنيّ. فكان لا بدّ له أن يحمل بنية زمنيّة وأخرى مكانيّة إذ "يستخدم الفنان شاعرا أو أدبيا... لغة الزمان والمكان لكي يعبر عن تجربة زمنية أو مكانيّة أو زمنيّة مكانيّة"²⁶

ويجري حضور المكان والزمان في العمليّة الإنشائيّة على مستويين، على قدر ما تثبت في المستوى الأوّل العلاقة بين الزمن والمكان، تكشف في المستوى الثاني عن تشكّلين مختلفين لاستحضار المكان لهذه الأزمنة فيكون الزمن موازيا للمكان في عملية الإنشاء وامتدادا له.

5 - توازي المكان مع العنصر الزمنيّ:

يتوازي المكان والزمان في العمليّة الإنشائيّة باعتبارهما عنصريّن حكايتيّين متشاكلين. وتعود العمليّة الإنشائيّة إلى تجربة تختزل أحداثا ذاتية -غزليّة كانت أو فخريّة- يظلّ التعبير عنها رهين استحضار عنصريّ المكان والزمان كما في قول الحادرة [من الكامل]:

تَزَوَّدَتْ عَيْنِي غَدَاةً لَقَيْتُهَا * * بِلَوَى الْبُنِينَةِ نَظْرَةً لَمْ تُقْلِعْ²⁷

فيقدم الشاعر خبر لقائه بالحبيبة. ويجعل له مكانا (لوى البنينة) وزمانا (غداة لقيتها). ويقوم بين الطرفين تلاؤما إذ أنّ التوازي على مستوى الحضور يخفي بعدا من الاتّحاد يربط حضور الواحد بالآخر. فموعد اللقاء مرتبط بمكان اللقاء ولا يمكن فصل الواحد عن الآخر لأنّ حدث اللقاء يقتضي حضور هذين العنصرين: المكان (لوى البنينة) والزمان (غداة لقيتها). فكان موضوع المعنى الشعريّ يقتضي حضور العنصرين الحكائيين: المكان والزمان. والمعنى الشعري لا يستدعي هذين العنصرين اعتبارا وإتّما تتحكّم فيهما خصوصيّة التعبير فكثيرا ما يقيّد عنصرا ويطلق آخر كما في قول الحادرة [من الكامل]:

وَنُقِيمُ فِي دَارِ الْحِفَاظِ بُيُوتَنَا * * زَمْنَا وَبَطَعْنَا غَيْرَنَا لِلْأَمْرِ²⁸

يفتخر الشاعر بمرتبة قومه، ويستدعي عنصري المكان (دار الحفاظ) والزمان (زمننا). وجعل المكان خاصًا لا يقيم فيه إلا من يحافظ على نسبه و حسبه. وجعل لهذه الإقامة زما مطلقا ليتجاوز التحديد. فتشكّل إطار مكانيّ مخصوص حيث الحفاظ على الحسب والمكانة النبيلة. واقتضت المكانة بذلك زما يكون بدوره ذا إنشَاء مخصوص يتجاوز العدد فعبرت لفظة "زمننا" عن معنى الدوام.

أقام هذان العنصران الحكائيّان علاقة قائمة على التوازي في مستوى الحضور في النصّ وقائمة على الاختلاف من حيث التحديد المكانيّ والإطلاق الزمنيّ... فكانا بهذه الطريقة المخصوصة في الإنشاء خادمين للغرض الفخريّ.

وقد يتوازي المكان والزمان في العمليّة الإنشائيّة في حضور على شاكلة مخصوصة حيث يتمّ التصريح بالمكان والتلميح بالمعطى الزمني وفق بعض تجلياته مثل خطوط الدهر والحادثات. فيتأتى الزمن عنصرا فاعلا والمكان نتيجة لفعله مثل قول متمم بن نويرة [من الكامل]:

أَفَنَيْنَ عَادًا ثُمَّ آلَ مُحَرَّقٍ * * فَتَرَكْنَهُمْ بِلَدًا وَمَا قَدْ جَمَعُوا²⁹

ويتنزل هذا القول في فعل الدهر وما أفنى من الأمم. فكان الزمن ملخصًا في الحادثات، عنصرا فاعلا في الأمم (عاد وآل محرق) ذهب بهم وبأموالهم وصيرهم مكانا دارسا (بلدا). فتشكّل الزمن باعتباره عنصرا مؤثرا والمكان نتيجة لهذا التأثير.

نتبين ممّا تقدّم أنّ المكان والزمان يتوازيان من خلال حضورهما في إنشاء النصّ ويتجلّيان متظافرين. وما هذا التوازي إلا تدلال على أهميتهما باعتبارهما عنصريين حكائيّين في العمليّة الإنشائيّة.

فالمكان والزمان يتمثلان المعنى من وجهتين مختلفتين، إذ تمثّل البنية الزمنيّة تعبيرا داخليا والبنية المكانيّة مظهرًا حسيًا. وهذا يعني أنّ كليتي البنيتين تمثّلان جوهر العمل الفنيّ ودرجة ارتقائه: "فلا بدّ للعمل الفني من بنية مكانيّة تعدّ بمثابة المظهر الحسي الذي يتجلّى على نحو الموضوع الجمالي وكذلك لا بدّ له من بنية زمنيّة تعبّر عن حركته الباطنيّة ومدلوله الروحي بوصفه عملا إنسانيًا حيًا"³⁰

إنّ المكان والزمان مظهران يظللان متلازمي الحضور، متوازيين. غير أنّ طرق التعبير عنهما تتنوّع وتتغيّر على شاكلات تنمهي والمعنى الشعري. وما هذا التنوّع إلاّ إسهام في تكثيف درجات الحكي. إذ أنّ المكان والزمان بتشاكلهما يؤثّنان التجربة الحكائيّة ويسهمان في النهوض بالمعنى الشعري.

ويتجاوز حضور المكان التوازي مع الزمان إلى استدعائه باعتباره امتدادا وعنصرا مكتملا له وفق ما تقتضيه البنية الحكائيّة للمعنى الشعري.

6 - الزمان عنصر مكتمل لبنية المكان:

تعبّر الأمكنة عن امتداد زمني يتمهي والبناء الشعريّ عموما سيّان كان من اقتضاء المعنى أو الغرض. ويتشكل هذا الامتداد الزمني في معان زمنيّة مختلفة يقتضيه الحضور المخصوص للأمكنة والسياق العام للعملية الإنشائيّة. إذ أنّ التعبير عن الامتداد الزمني للمكان يفصح عن حاجة العملية الإنشائية إلى هذين العنصرين المهمّين (المكان والزمان).

إنّ الشاعر يستدعي حضورا زمنيّا فريدا يتمهي مع المكان فيظل امتدادا له مثل قول تابط شرا مفتخرا بهروبه من الأعداء³¹ وبلوغه المكان قبل رفيقيه [من البسيط]:

"وَقَلَّةٌ كَسَنَانَ الرُّمَحِ بَارِزَةً * * ضَحِيَانَهُ فِي شَهْوَرِ الصَّيْفِ مِحْرَاقِ

بَادَرْتُ فُتَّتَهَا صَحْبِي وَمَا كَسَلُوا * * حَتَّى نَمَيْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ إِشْرَاقِ

لَا شَيْءَ فِي رَيْدِهَا إِلَّا نَعَامَتُهُ * * مِنْهَا هَزِيمٌ وَمِنْهَا قَائِمٌ بَاقٍ"³²

فقصّد الشاعر أن يصوّر هروبه وسبقه صاحبيه - وهم على جدّ - فجعل غايته مكانا بارزا تمثله قلة الجبل. وقلة الجبل وقتته أعلى نقطة فيه. ويعطي هذا المكان قيمته جعل له امتدادا زمنيّا بارزا للشمس في شهور الصيف ليمتلك الشدّة والقسوة على طارقه.

ويمكن أن يتشكّل الامتداد الزمنيّ للمكان (قنة الجبل) من خلال بقاء نعامتها (الخشببات فوق أعلى الجبل). وما الحديث عن طمس جزء منها وبقاء آخر (منها هزيم ومنها قائم باق) إلاّ تدلال على فعل الزمن بهذا المكان.

إنّ المكان في هذا المستوى يستحضر الزمن على مستويين، يتمثل الأوّل في بقاء هذا الجبل بارزا صيفا، ويبرز الثاني من خلال بقاء هذا المكان أمام فعل الزمن.

وتبيّن أنّ أبرز خصيصة لهذا الحضور الزمني تتمثله امتدادا لمكان استدعاه لتبرز صورته تامة ناهضة بالمعنى. فتشكّل مكان قائم بارز معاند للزمن ومتميّز بالقسوة والشدة، ممّا أسهم في النهوض بالنفس الفخري الذي رمى إليه الشاعر. فكان الزمن تبعا لذلك امتدادا اقتضاه المكان لغاية الإسهام في العملية الإنشائية.

ويمكن أن يتحلّى الامتداد الزمني للمكان وتجاوز الأمكنة حدودها إلى استحضار أزمنة في نوب الدهر على المكان كما في قول الحادرة [من الكامل]:

"وَمَنَاخٍ غَيْرِ تَيْبَةٍ عَرَسَتْهُ * قَمَنٍ مِنَ الْحَدَثَانِ نَابِي الْمَضْجَعِ"³³

إذ يصف موضع إناخة الإبل ويجعل أبرز صفاته فعل الدهر به. فكان مكانا متأثرا بهذا الفعل حتى غدا مخوفا محفوفا بالمخاطر. وكان تبعا لذلك خادما للغرض في قطع الشاعر للأودية والفضاءات المخوفة عامة. فقام المعنى الشعري على درجات من التطور. واقتضى الحضور امتدادا زمنيا يتأثر به ليبدو متشكّلا في صورة مخصوصة تسهم في البعد الفخري الذي يسعى إليه الشعراء.

والامتداد الزمني هو اقتضاء مخصوص للمكان إذ يتشكّل وفق بنيته ووفق ما ينهض بالمعنى الشعري. فيتأثّر الاختلاف بين الزمن الواقعي مثلما يتجسّد تاريخيا والزمن الذي يقتضيه المكان ويستحضره المعنى الشعري كما في قول ثعلبة بن صعير [من الكامل]:

"قَبْنَتْ عَلَيْهِ مَعَ الظَّلامِ خِباءَهَا * كَأَلْحَمْسِيَّةٍ فِي النَّصِيفِ الْحَاسِرِ"³⁴

يصف الشاعر ناقته فيشبّتها لسرعتها بالنعامة التي تساقط ريشها من شدة السرعة وبلوغها البيض الذي غطته بجناحيها اللذين أقاما الخباء وأظلماه. وكان الجناحان بريشهما بمثابة الظلام الذي يخيم على الخباء ويدعم هذه الصورة تشبيها بالأحمسية (المرأة من حمس) وقد حوسرت في النصيف.

كان الظلام إجماعا زمنيا بالليل يستدعيه الخباء فعبر تعبيرا فريدا عن وحدة المكان والزمان في النهوض بالعملية الإنشائية.

إنّ الزمن في هذا المستوى لا يطابق تماما الزمن الواقعي إذ لا يعود الظلام إلى الليل وإتّما كفى به عن ظلّ الجناحين. لذلك كان الظلام في العملية الإنشائية مختلفا ضرورة عن الظلام في الواقع.

إنّ اختيار الزمن يتمشى مع الحدث الشعري، ينهض به، ويسهم في إنشائه امتدادا للبنية المكانية. فالمكان يحتاج إلى الزمن للنهوض بالمعنى الشعري. حيث أنّ اتحاد المكان والزمان يمكن أن يشكل صورة فريدة كما في قول الشنفرى [من الطويل]:

"فَتَبْتَنَا كَأَنَّ الْبَيْتَ حُجْرَ فَوْقَنَا * * بِرِيْحَانَةٍ رِيْحَتْ عِشَاءً وَطَلَّتْ"³⁵

يصوّر الشاعر بيئته بريحانة. وليبرز تمتّعه بمكانه (الريحانة) يجعل له زمنا (عشاء) يمثّل امتدادا لهذا المكان يؤثر فيه، ويسهم في إنشائه. إذ أنّ المعطى الزمني أظهر لرائحة الرياحين حيث يصيبها الندى فتطلّ وتزداد طيبا. فتسهم في تأطير مكان يعكس تمتّع الشاعر بالإقامة به. فالشاعر يسعى إلى اختيار ما يناسبه من الأزمنة ويدعمه للنهوض بالمعنى الشعري لإبراز أهميّة هذا المكان وقيّمته.

نتبيّن ممّا تقدّم أن الحضور الزمني في هذا المستوى يظل رهين التعبير عن صفات المكان، لذلك مثل بعدا من أبعاده. فالأزمنة مُدعّمة للأمكنة تحدّد مجالها من جهة فعل الزمن [مناخ قمن من الحدّثان] أو [قلّة منها هنّيم ومنها قائم باق] أو من جهة استحضار المكان لزمن مخصوص يُعيّن فيه صفات معيّنة [ريحانة ريحت عشاء] ومن جهة البون الشاسع بين الزمن في النصّ الشعريّ والزمن الواقعيّ.

وعلى اختلاف تفاعلاته يظل الزمن امتدادا للمكان. غير أنّ هذا الامتداد على قدر ما يسهم في تأطير البنية المكانية يسعى إلى إنشاء العملية الشعريّة. فنكتشف علاقة فريدة بين المكان والزمان غايتها النهوض بالمعنى الشعري. وكان الزمن تبعا لذلك فضفاضا. وكانت الرؤية إليه مطلقة غير محدّدة، فلا تتحقّق ولا تكتسب تجسيدا لها إلاّ في المكانية. وبمعنى ما يمثّل المكان التجسيد الحسّي للزمان.

تقوم العملية الإنشائية على ضرب من اتحاد الزمن والمكان يصوّر المعنى الشعريّ ويؤطر بنيته لغايات جمالية ويعين علاقاته بالواقع. لأنّ الكائن مكون في ظرف زمنيّ ومكاني. وعلى

هذا الأساس تتحدّد مسافة البعد بين الإنشاء والمظهر الحياتيّ/الواقعيّ. ففي وحدة الزمان بالمكان -سواء بتوازيهما على مستوى الحضور أو بامتداد عنصر إلى آخر- إيجاء ضمنيّ بواقعيّته على مستوى عمليّة الإنشاء نصيّا. غير أنّ التعبير الشعريّ في تحقيق ضرب من الفريدة في النصّ الشعريّ القديم يستدعي الزمن عنصرا مساعدا للمكان موازيا له في العمل الفني حينما مكتملا ومحدّدا ملامحه في أحيان كثيرة.

III - التجربة الطليّة ووحدة الزمن:

تستجيب التجربة الطليّة لمقاربة مكانية زمانية في آن لما تستدعيه من حضور مكانيّ مخصوص يكسبه امتدادا زمنيّا.

7 - التشكل المكاني لتجربة الطلل:

يمثل الطلل مكانا دارسا يحمل رسوم الراحلين عنه. وكثيرا ما يعبر عن لوحة يقدها الرماد والأثافي والبعر ومرابط الخيل ومناخات الإبل، فضلا عن آثار الحبيبة ومراسي خيمتها. وتكاد لا تخلو نصوص الشعر العربي القديم من وصف الأطلال. ولعلّ ذلك ما يكسب هذا القسم قيمته المثلى من حيث حضوره في القصيدة ومن حيث رغبة الشاعر في استحضار هذه التجربة. وما يزيد هذه التجربة أهميّة موقعها من القصيدة وتأثيرها في الغرض وحيرة النقاد قدامى ومحدثين في تأويلها³⁶

غير أنّ أهميّة في هذا المجال تتمثّل في قيام المعنى في التجربة الطليّة حول مكان. إذ أنّ الشاعر في القسم الطللي يصف مكانا كما في قول الحارث بن حلزة اليشكري [من الكامل]:

"لَمَنْ الدِيَارُ عَفْوَنَ بِالْحَبْسِ * آيَاتُهَا كَمَهَارِقِ الْفُرْسِ"³⁷

يصف الشاعر الطلل فيشبهه دياره في إبهامها بصحائف الفرس.

وفي قول المرقش الأصغر [من الوافر]:

"فَلَأَيًّا مَا تَبِينُ رُسُومُ دَارٍ * وَمَا أَبْقَى مِنَ الْحَطَبِ الصَّلَاءُ"³⁸

يصف الشاعر الطلل فيجعله رسما تقدّه الأثافي وبقايا النار.

وسَيَّان كان الموصوف ديارا أو رسوما، فإنه يمثّل مكانا له خصائصه ومميّزاته. وهو ما يقترّ بأنّ التجربة الطليّة تقوم أساسا على وصف المكان. فالطلل هو الموضع المرتفع والرسم الشاخص يقف به الشاعر بالغ الحزن متأثرا. وعلى هذا الأساس نقارب هذا القسم من خلال قيامه على مكان يحمل ملامحه المميّزة ويحقّق بعده الرميّ الفريد.

ويتأتّى المكان في التجربة الطليّة حمّال صفات متنوّعة تميّزه عن بقية الأماكن وتحدّده وتقدّه وفق المعنى الشعريّ. ولعلّ أبرز سمة للمكان الطللي تمثله باعتباره مكانا دارسا قفرا خلاء. مثل قول الموقش الأكبر وهو يبرز خلاء الديار وبقاء هذه الآثار مثل رقوش القلم في قوله [من السريع]:

"الدَّارُ قَفْرٌ وَالرُّسُومُ كَمَا * * رَقَّشَ فِي ظَهْرِ الْأَدِيمِ قَلَمٌ"³⁹

تصبح الديار خلاءً قفارا وقد استبدلت البشر بالوحش فيقف بها الشاعر متحرّقا بهيّه الشوق كما في قول عوف بن عطية [من المتقارب]:

"أَمِنْ آلِ مَيِّ عَرَفْتَ الدِّيَارَا * * بِحَيْثُ الشَّقِيقُ خَلَاءَ قَفَارَا

تَبَدَّلَتْ الْوَحْشَ مِنْ أَهْلِهَا * * وَكَانَ بِهَا قَبْلُ حَيِّ فَسَارَا"⁴⁰

يظلّ المكان في القسم الطلليّ رسما دارسا يشبّه فيه بخطوط القلم ورقوشه والآيات الفارسية التي يعسر على الشاعر فهمها وفكّ رموزها. وقد كان عفاء هذه الديار وخلاؤها سببا لتستبدل سكانها بالوحوش والظباء. إلّا أنّ هذا الاندثار والاتّحاء لا يخفي ما يحيل على البقاء، فعلى قدر ما تكون الرسوم دراسة تكون ثابتة محقّقة لوجودها. لذلك كانت تقدّم مكان الطلل ثنائيّة الظاهر البادي للعيان والعائي المندثر الممّحي وهذه الصفة غالبية على كلّ الأطلال. فتندثر الآثار غير بعض الملامح التي تظل ثابتة مثل تخدم الحياض وبقاء مصباتها في قول عوف بن الأحوص [من الوافر]:

"هُدِّمَتْ الْحِيَاضُ فَلَمْ يُعَادَرْ * * لِحَوْضٍ مِنْ نَصَائِهِ إِزَاءً"⁴¹

فقد هدمت الحياض إلّا أنّ مصبات الدلاء مازالت باقية.

ويبرز اندثار الديار وبقاء آثار الجياد والسير على الرمال في قول الحارث بن حلزة

اليشكري [من الكامل]:

"لَا شَيْءَ فِيهَا غَيْرَ أَصْوَرَةٍ * * سَفْعِ الْخُدُودِ يَلْحَنُ كَالشَّمْسِ
أَوْ غَيْرِ آثَارِ الْجِيَادِ بَأَع * * رَاضِ الْجِمَادِ وَآيَةِ الدَّعْسِ"⁴²

يتأتى الطلل ربما دارسا قد اتحى ولم يبق منه إلا الآثار في الأواري كما في قول عميرة بن جعل [من الطويل]:

"فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ نُؤْيٍ مُهْدَمٍ * * وَغَيْرِ أَوَارٍ كَالرَّكِيِّ دِفَانٍ
وَغَيْرِ حَطُوبَاتِ الْوَلَائِدِ دَعْدَعَتْ * * بِهَا الرِّيحُ وَالْأَمْطَارُ كُلُّ مَكَانٍ"⁴³

إنّ ملمح الظاهر الباقي والمندثر الممحي تجعل المكان الطللي مفتوحا على وجهتين، تتمثل الأولى في ذاتية الشاعر التي تقترب من هذا المكان وتلمّس ملامحه، وتعود الثانية إلى المكان في ذاته باعتباره الفضاء الباعث على إثارة إشكال الامتداد الزمني. وتَشكُّلُ المكان في القسم الطللي يُبنى في غالبه على الاندثار والاتحاء. إلا أنّ بعض ملامحه لا تطمس نهائياً، وإنما تظلّ تحيل على بقاءه، ومداومته ليحافظ على تحقيق وجوده واقعيًا، وعلى طبيعته باعتباره عنصرا فاعلا في الذات الشعرية، وعلى أهميته في النص الشعري باعتباره خادما لبقية مواضيع القصيدة. ونرمي من خلال قراءة خصوصية المكان في القسم الطللي وتحديد ملمحي الاندثار وبقاء بعض ما يجيل عليه إلى تحديد البعد الزمني للطلل انطلاقا من هذين الملمحين المُقرَّرين سلفا.

8 - الامتداد الزمني للمكان في التجربة الطللية:

يحمل المكان في التجربة الطللية جملة من الملامح التي تفتحها على امتداد زمني من جهات مختلفة لا سيّما أنّ لهذا المكان من الصفات التي تربطه بالزمن ما يجعله على وطيء علاقة به. سواء على مستوى بقاءه وقد غطّى الخراب والقفار كل أركانه. فحمل الذات الشاعرة موقفا من الزمن أو على مستوى اعتبار التجربة الطللية في عمومها برهة زمنية. فكانت هذه المستويات تعبر عن امتداد زمني مخصوص.

9 - الطلل ومسألة البقاء:

يمتثل الطلل دليل إثبات على العهود الخالية فيحتوي الزمن بماضيه البعيد يحصرها عميرة بن جعل في ثمانية أعوام في قوله [من الطويل]:

"أَلَا يَا دِيَارَ الْحَيِّ بِالْبَرْدَانِ * خَلَّتْ حَجَجٌ بَعْدِي لَهْنٌ ثَمَانٍ"⁴⁴

فيتحدد زمن عمر هذه الديار وقد اندثرت غير بعض الآثار التي مازالت تعاند الزمن مشكّلة عنصر البقاء عنادا للزمن ومداومة له وقد مضى عليها ثمان سنوات. والشاعر لا يستطيع معرفة الديار إلا بعد التوهم والجهد والمعاناة لدروس معالمها وبُعْدِ عهدها وفعل الزمن بها. وما معرفته بها إلا دليل على بقائها ومداومتها الزمن. ويجعل المرقش الأصغر الآثار موعلة في القدم تحمل ذكراه مع حبيته في قوله [من البسيط]:

"لِإِبْنَةِ عَجَلَانَ بِالْحَجْوِ رُسُومٌ * لَمْ يَتَعَفَّنَ وَالْعَهْدُ قَدِيمٌ"⁴⁵

يكسب الشاعر المكان الطللي إيغالا في الزمن الماضي وإيجاء بمداومته الزمن بمختلف خطوبه من عناصر طبيعة يبرز فعلها في الرسوم في عديد المواضع من الأطلال غير أنّها ما تزال رغم فعل هذه العناصر تحافظ على بقائها مثل قول عبد الله بن سلمة الغامدي [من الكامل]:

"أَمَسْتُ بِمُسْتَنْ الرِّيحِ مُفِيلَةً * كَالْوَشْمِ رُجَعٍ فِي الْيَدِ الْمُنْكُوسِ

وَكَأَنَّما جَرَّ الرُّوَامِسِ ذَيْلَهَا * فِي صَحْنِهَا الْمَعْفُو ذَيْلُ عَرُوسٍ"⁴⁶

فتبدو الريح عنصرا مؤثرا يسعى إلى طمس الآثار. إلا أنّها تظل باقية رغم تنكّرها وإجهاذ الشاعر في تبينها كما في قول بشر بن أبي خازم [من الكامل]:

"لَعِبْتُ بِهَا رِيحُ الصَّبَا فَتَنَكَّرْتُ * إِلَّا بِقِيَّةِ نُؤْيِهَا الْمُتَهَدَّمِ"⁴⁷

تلعب الرياح بالديار فتغيب عن الشاعر لولا البعض ممّا بقي من الآثار والجدران المتهدّمة. وقد تحمل الريح والسيول فعلا إيجابيا فتعزّي ما غطي من الآثار وتجعلها قائمة ومداومة للزمن.

وتبدو رسوم الدار قد توحّشت وتغيّرت وعزّها السيل، ولم تمح بطول الزمان ومضيّ السنوات. فكان التحرك في المكان مجرّد ابتعاد وكان التحرك في الزمن ابتعادا وليس افتراقا⁴⁸.

وظلّ بقاء الرسم سنين طويلة وإحالاته على العهود القديمة يخفي مداومة للزمن وعنادا ورغبة في البقاء. وهو أمر يتلبّس بذاتية الشاعر في بعض ملامحها، فما بقاء الطلل ومداومته للزمن إلا بقاء للشاعر على عهد حبيته الراحلة. ويكشف أيضا عن موقف للشاعر ذاته من

الزمن باعتبار أنّ الطلل طريقة تعبير عمّا يخالج الذات. وفي هذا المجال ينتزّل الطلل باعتباره مكانا كفيلا بالكشف عن الخفايا وعمّا يصعب تحديده بالرؤية لأنّ: "كل ما نراه هو المكان, فحن إذا نرى الأشياء لا أبعادها, ولذا تستعصي علينا الرؤية"⁴⁹

فَمَثَلُ الْمَلَكِ إِذَا السَّبِيلَ إِلَى الْكَشْفِ عَنْ خَفَايَا الذَّاتِ وَالرُّؤْيَى وَالْعُنَاصِرِ الْمَحْدَدَةِ وَتَشَكُّلِ فِي النَّصِّ الشَّعْرِيِّ خَطَّانَ مُتَوَازِيَانِ، يَتِمَّتْ الْأَوَّلُ فِي الْحُسُوسَاتِ وَالْمُرْتَبَاتِ، وَيَعْبَرُ الثَّانِي عَمَّا تثيره هذه المحسوسات من صور ذهنيّة شأن ما يثيره المكان باعتباره محسوسا ومرئيا من امتداد زمني. فكانت الذات الشعرية تبتّ مواقفها من الذهنيّات الصعبة التحسيد مثل الزمن والقدر... في النصّ الشعريّ عبر مجسّدات مثل الأمكنة.

ويتسّى لنا القول تبعا لذلك إنّ الشاعر من خلال التجربة الطللية يتأتّى صاحب موقف من الزمن. وما عناد الطلل ومداومته للزمن ومقاومته للظروف الطبيعية إلّا معاناة الشاعر لخطوب الدهر وظروف حياته العصبية. وعلى قدر بقاء الطلل ومداومته للزمن رافضا الأتخاء يكون الشاعر غير يائس ولا مستسلم رغم حزنه وبكائه هذه الآثار. وما بكاءه إلّا حزن على الماضي الجميل قبل الترحّل المجاليّ. وفي هذا المجال انفتح الترحّل من مكان إلى آخر مخلّفا الآثار الدارسة على ترخّل في الزمن. فكانت التجربة الطللية برهة زمنيّة حبلية بالتحوّل من ماض إلى حاضر إلى الانفتاح على مستقبل غامض مشكّلة حركة في الزمن تحتوي الذات الشاعرة بمختلف تفاعلاتها.

10 - حركة الزمن في القسم الطللي:

يحتوي القسم الطللي جملة أماكن تتعاقب لتعيّن الطلل وتحدّده. وما هذا التحديد إلّا إثبات لوقف الشاعر بهذه الآثار الدارسة. ولم تكن هذه الوقفة عاديّة وإنّما كانت وفاءً لعهود خلّت ولذكرى الحبيبة في ماضٍ تحتويه الذات الشعرية. فكان الطلل سبيلا لتذكر هذه العهود. لذلك مرّت الوقفة في التجربة الطللية بعمليّتي تذكر وتوقّف. وعلى قدر ما يشير التذكر إلى إيغال في الزمن الماضي يحيل إلى التوقّف على زمن حاضر الشاعر.

وتعيدنا عمليّة التذكر إلى استحضار ماضٍ يحيل على لقاء سابق أو على عهد برّمته. فيقف إجلالا لهذه الذكرى ويسجم الدمع ويتوسّل أصحابه للبكاء ويردّ عليهما لومهما على

بكائه وقد حرّك فيه هذا المكان ذكرى الاجتماع معا ثم يبعث فيه حكمة دوام حال من الدهر
مثل قول المرقش الأصغر [من البسيط]:

"لِإِنَّتِ عَجَلَانَ إِذْ نَحْنُ مَعًا * * وَأَيُّ حَالٍ مِنَ الدَّهْرِ تَدُومُ"⁵⁰

فيصف مكانها وديارها متحسّرا على تبدّل الأيام. وتبعث الوقفة الطللية ذكرى إقامة أهل
الشاعر وأهل صاحبتة، حيث كانوا يقيمون في هذه الديار متقابلين كما في قول عوف بن
الاحوص [من الوافر]:

"لِخَوْلَةٍ إِذْ هُمْ مَعْنَى، وَأَهْلِي * * وَأَهْلُكَ سَاكِنُونَ مَعًا رِثَاءً"⁵¹

فيضمّن الذكرى نبضا زمنيا يقيمه دليل إقامة أهله وأهلها متقابلين. والوقوف بالمكان
الطلليّ وتلمّس أطرافه وتبينها يبعث على تذكر الأيام الجميلة وما يبعثه هذا التذكر من حزن
وسقم كما في قول ربيعة بن مقروم [من الوافر]:

"وَذَكَّرَنِي الْعَهْدُ أَيَّامَهَا * * فَهَاجَ التَّدَكُّرُ قَلْبًا سَقِيمًا"⁵²

فتذكّر الحبيبة وحيّتها وعهودها وأيامها الجميلة قبل مسيرها كان متعلّقا بما نقش من آثار
وأطلال دارسة. فكان التذكر يشير إلى الزمن الماضي. وهذه العودة إلى الماضي يبعثها اعتماد
علامات لغوية معينة تحيل بدورها على الزمن الخالي من صيغة الأفعال المبنية على زمن الماضي.
إنّ الشاعر يتوسّل بإمكانة الأطلال الدارسة للعودة إلى الماضي وتذكّر عهود صاحبتة.
والتوقف نابع من ذكرى واستحضار ماض. فكانت الدعوة إلى التوقف تتجاوز جانبها المحسوس
إلى توقف زمني. وكأنّ الشاعر يسعى إلى وقف الزمن للحظة يقطع فيها برهة من المطلق
ليستعيد الماضي ويستنطق بالذكرى. فإذا هو على وصال بعهد خلت ثابتة أبدا في وجدانه إلاّ
أثما "لحظة آن" تنطلق من حاضر الشاعر ومن مكان دارس موقوف عليه. فشكّل التوقف
والتذكّر حركة زمنية من الماضي إلى الحاضر. فالتوقف يشير إلى الحاضر باعتباره عملية آتية
والتذكر يشير إلى الماضي.

والوقفة جبلي في ذكر الأمكنة الطللية بالبعد الزمني إذ ما هي إلاّ برهة زمنية تكشف عن
عمق الصراع الذي يعيشه الجاهلي مع الزمن، ذلك الصراع الأبدي الدائم الذي يمثل وعيا
بمحدثات الدهر وممكنات فعله وهو إدراك للزوال الحاصل والموات الحال وربّما "كان أقسى ألم

يعانيه الإنسان هو ذلك الألم المنبعث من استحالة عودة الماضي وعجز الإنسان في الوقت نفسه عن إيقاف سير الزمن"⁵³

إنّ التجربة الطللية باحتوائها أمكنة واقعية تحمل الإثبات والدليل على ما فعل الزمن بالديار وأصحاب الديار، إذ تحيل على بعد زمني صرف، ولا تقف عند حدود المكان جامدا ثابتا عديم الحركة. وإنّ بدا على هذه الشاكلة فإنّ البعد الزمنيّ يظهر جليًا في الخراب الحالي والفناء البادي عمرانًا وحركةً.

IV - الأمكنة والامتداد الزمني في الحدث الذاتي والقبلي:

يحتوي المكان الحدث التاريخي سيان كان ذاتيا أو قبليا في النص الشعري. وتورد المؤلفات مختلفة قصصا وحكايات مفصلة قد وردت في قصائد الشعراء. وتوثق كل نص جملة حكايات ومشاكل مع القوم إن اختلفت وتنوّعت فإنّها تمثل الواعز والقادح لكتابة هذه النصوص. وكلّما تخلو هذه الحكايات من مواقع وأماكن مختلفة. فكان المكان متضمنا للحدث التاريخي. ويتشكّل تبعا لذلك بعدد زمنيّ من وجهة مخصوصة.

11 - المكان والامتداد الزمني في الحدث الذاتي:

كثيرا ما تحتوي النصوص الشعرية قصصا وحكايات مختلفة ومتنوعة من إغارة على الأعداء وغزو. ولا تأتي هذه الأحداث جزافا في النص الشعري إنّما ترتبط بأماكن. فالشاعر يؤطر لحدثه، ويؤرّج بمكان. فكان المكان بذلك يتميّز باحتواء حركة تاريخية معينة يمكن أن نلمحها في أحداث ذاتية يكسبها الشعراء نصوصهم كأنّ يعتذر الشاعر الكلبية⁵⁴ عن عدم إدراكه حزيمة بن طارق التغلبي لأنّ فرسه شربت ماء كثيرا. وعادة لا تشرب خيل العرب عند الإغارة⁵⁵ ويذكرهم بأمره ويشحن ذلك بمواضع تثبت واقعه الذاتية في قوله [من الطويل]:

"وَقُلْتُ لِكَأْسِ الْجَمِيهَا فَإِنَّمَا * * نَزَلْنَا الْكَثِيبَ مِنْ زُرُودٍ لِنَفْرَعَا
أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى * * وَلَا أَمْرَ لِلْمَعْصِيِّ إِلَّا مُضَيِّعًا"⁵⁶

فيريّد عدم لحاقه بالغاثر إلى شرب فرسه الماء. ويجعل هذا الحدث مقترنا بمكان. فحقّق بعده التاريخي لأنّ وعي الجاهلي يجعل الارتباط بالمكان وعيا بالزمان وتاريخا للوقائع.

ويتحدّث الشنفرى عن قتله عبد الله بن عوف في قصاصه من بني سلمان بن مفرج الذين وعد بالثأر منهم بمائة رجل لقتلهم أباه ولسوء معاملتهم له في صغره في قوله [من الطويل]:

"شَفَيْنَا بَعْدَ اللَّهِ بَعْضَ غَلِيلِنَا * وَعَوْفٍ لَدَى الْمَعْدَى أَوَّانَ اسْتَهَلَّتْ" ⁵⁷

فمثل المعدى (موضع العدو وقد قصد ساحة القتال) مكانا يحتوي حدث قصاص الشنفرى وثأره من عدوه. ويتحدّث عبدة بن الطبيب عن بعد خولة عنه وحلولها بالمداين في قوله [من البسيط]:

"إِنَّ التِّي صَرَبَتْ بَيْتًا مُهَاجِرَةً * بِكُوفَةِ الْجُنْدِ عَالَتْ وَدَهَا غُولٌ" ⁵⁸

فجعل هجرها و"اعتبال" الود مرتبطين بالمكان "بكوفة الجند".

وتتنزّل الوقائع الذاتية سواء حول فرار الغائر وعدم القدرة على اللحاق به أو حول شفاء الغليل والقصاص من العدو أو حول بعد الحبيبة وهجرانها مُضْمَنَةً في أمكنة. وحين يقدّم الشاعر الحدث يجعل مكانه شاهدا عليه ومحدّدا تاريخه وحركة وقوعه. فالشاعر حين يقدّم لحديثه مكانا يحسّ أنّه قد حدّد موقعه الزمني، لأنّ ذهنيّة العربيّ كانت تحدّد أيّامها بمواقع لا بتواريخ.

12 - المكان والامتداد الزمني في الحدث القبلي:

تختزن عدة نصوص شعرية أحداثا قبليّة مختلفة الأماكن والأزمنة وتتعلق بأيام العرب ومآثرها، فثُدْوَنُها وقد توسّلت بأمكنة معروفة في الذهنيّة العربيّة لتبيّن معالمها. وكانت الأمكنة بذلك متلبّسة بالأحداث والأزمنة في آن.

ويجري استحضار أمكنة ذات امتداد زمني متشكل في التأريخ لأحداث قبلية على مستويين، يتمثل الأول في القول الشعري المنشأ على لسان القبيلة/المجموعة وتحقيق حدثها التاريخي في النصر أو الثأر. ويتمثل الثاني في اعتباره قولاً شعرياً مدوّناً وحافظاً لأيام العرب المشهورة ويمكن أن يتجلّى ذلك في جملة من القول الشعري مثل مفضليّة الحارث بن وعلّة حيث يذكر أحداث يوم الكلاب الثاني وفرار قومه وانفتاحهم على أرض "حذنة" وهي أرض لبني عامر بن صعصعة في قوله [من الطويل]:

"كَأَنَّا وَقَدْ خَلَّتْ حُدُنُهُ دُونَنَا * نَعَامٌ تَلَاةٌ فَارِسٌ مُتَوَاتِرٌ"⁵⁹

فيفتح المكان "حذنة" على اختزان حدث مهمّ يتمثل يوما من أيام العرب. ويفتخر ربعة بن مقروم بقوة قومه وشدة بأسهم في الحروب ويذكر من أيامهم يوم براخة والنسار وطخفة والكلاب وذات السليم. وكلها أسماء مواضع في قوله [من الوافر]:

"فِدَى بِيْرَاخَةَ أَهْلِي لَهْمٌ * إِذَا مَالُوا بِالْجُمُوعِ الْحَزِيمَا
وَإِذْ لَقِيَتْ عَامِرٌ بِالنَّسَا * رٍ مِنْهُمْ وَطِخْفَةَ يَوْمًا عَشُومَا
وَسَاقَتْ لَنَا مَذْحِجٌ بِالْكَالِبِ * مَوَالِيهَا كُلُّهَا وَالصَّمِيمَا
وَأَضْحَتْ بِتَيْمَنَ أَجْسَادُهُمْ * يُشَبِّهَهَا مَنْ رَأَاهَا الْهَشِيمَا
وَلَوْلَا فَوَارِسُنَا مَا دَعَتْ * بِذَاتِ السُّلَيْمِ تَمِيمٌ تَمِيمَا"⁶⁰

وتحتوي المفضليات جملة من أيام العرب⁶¹ وقد اقترنت أحداثها بإمكانة. بل سميت هذه الأيام وحددت بإمكانة. مما يجعل المكان في هذا المستوى يتمثل الحدث والتأريخ له. وهو ما يدعو إلى الإقرار بأنّ الامتداد الزمني للأمكنة لا يكتمل المكان ويحدّد ملامحه فحسب، وإنما يقترن البعد التاريخي بالمكان ويتلبّس به لتحديدته وتثبيتته في الذهنية العربية ولعلّ الأمر يرتدّ إلى أنّ الثقافة العربية ثقافة مكانيّة بالأساس. فالترحّل يقوم عبر إحساس مكاني والتوسع في الغزو يجري مكانيًا والتأريخ والتقييد الزمني يتأتى عبر الاقتران بالأمكنة. وما معرفة أيام العرب بإمكانة لا بتواريخ إلاّ دليل على أهمية المكان وعلى الوعي ببعده الزمني بالأساس.

إنّ المكان يحتوي أحداثا زمنية بتأريخه لهذه الأحداث، وقد صيغت على اسمه. فيحقق باحتوائه الواقعة التاريخية من غزو وإغارة امتدادا زمنيًا يسهم في الوعي بأهميته. وقد مثل سجلا في الذهنية العربية تؤرخ به لأيامها. ومعظم أيام العرب تعرف بمواضع وأمكنة ولا تعرف بتواريخها. فكان الحدث القبلي يرويه مكان مما جعله يحمل دليل إثبات على وقوع الحدث وزمنه.

يجعل هذا البعد الزمني الإحساس بالمكان يتجاوز حدوده باعتباره مجالا مقيسا متحددا بالرؤية إلى مجالات أبعد تحمّله صور ذهنية مختلفة غير قابلة للقياس والتحديد. وهذا الاحتفاء الزمني بالمكان واحتوائه الأحداث الذاتية والقبلية يمكن أن يثير قيمة أخرى للنصّ الشعري تتأتى

من جانبين يتمثلان بنيتيه: جانب تأريخي يحتوي أحداث العرب وأيامها ووقائعها، وجانب فني يتمثله خلق نصّ فريد يقوم على اللغة الخيالية المكثفة⁶² يمكن أن نستبينها من خلال المكان ذاته حيث يمثل المكان باسمه أسطورة تعيّن وجوده واسمه ولم تخل الأماكن -جبالا وسهولا وهضابا- من الارتباط بأساطير وخرافات تعطيها سببا لتسميتها⁶³. والشاعر حين يضمّن نصّه هذه الأمكنة يربطه بالبعد التاريخي. وهو الأمر الذي يجعل النص الشعري خارقا للمألوف ومفارقا للمبهم⁶⁴

ومهما قارنا المكان زمنيا فإنّ النصّ في توسّله باللغة يسعى إلى معانقة المطلق والثبات الدائم أبدا. فكان للمكان ما يجعله زمنيا قابلا لتطوّر وتغيّره، والمكان ثابت أبدا. من ثمة كانت إفادة النص في الصراع مع الزمن سعيا إلى إثبات الذات. والنص ذات وكيان يسعى إلى الانفلات من التحديد ومحاوله التحقّق ومعانقة المطلق. ولعلّ هذا التحقّق للنصّ إنّما هو إحالة على أبعاد أخرى للمكان تنعكس على الذات الشاعرة وعليها تردّ استحضارا للحظة الإنشاء. والنصّ المنشأ هو كناية عن الذات المنشئة. فكان الشاعر يحقّق المطلق في الزمن "وكأنما هو يكتشف في الآن أقسام الزمان ليخلق من التحامها نوعا من الأبدية"⁶⁵

يتجلى في النصّ حضور الزمن بتشكلات مختلفة ماض ومستقبل وحاضر يتلبّس بالمكان. فكان المكان بهذا الاختزال للأزمة مسهما في تحقيق الأبدية لكيان النصّ وذات الإنشاء الراغبة في الخلود.

II النتائج:

إنّ البعد الزمنيّ للمكان قد تشكّل من جانبين. جانب يفرضه النصّ ليكتسب بدوره حسا زمنيا مثل الأحداث الذاتية المتعلقة بالشاعر. وجانب ثان يتعلّق بالثقافة الجمعية في عمومها متشكّلة في أحداث تاريخية متواترة بين العرب وقد أحاطتها عملية التدوين في الثقافة العربية الإسلامية برعاية مهمّة. والشاعر حين يستحضر هذا المكان لا يجعله مكانا مجردا، إنّما يستحضر زمنا وحدثا وكلّ ما يحيطه من معطيات ثقافية يكتسب بها أبعاده، فيتلبّس بالثقافة عامّة. والمكان في تحقيق الامتداد الزمنيّ يكتسب النصّ قيمة الانتماء الثقافي والتاريخي.

إنّ المكان في تلبّسه بالزمن على مستويات العمليّة الإنشائيّة من ضرورة حضورهما باعتبارهما إطاريّ المادّة الحكائيّة، وعلى مستوى احتوائه الحدث زمنيا في الثقافة العربيّة يجعله يتجاوز حدوده الجغرافيّة إلى مجال يكتسب فيه المكان هدفين، هدفا إنشائيّا يمثّل فيه المكان آليّة تعبير تتواصل بها الذات المنشئة مع ذات التقبل بإسهامه في النهوض بنصّ جامع لثقافة مشتركة بين الذاتين. وهدفا "إنسانيّا" يرتفع بمفهومه إلى مرتبة الهوية متشكّلا في احتواء النصّ أمكنة حبلية بارتسامات زمنيّة متشكّلة في وقائع العرب وأيامها المشهورة. إلاّ أنّ هذا الحضور يمكن أن نلقي فيه عودة إلى الذات المنشئة فيكون الامتداد الزمنيّ للأمكنة مرتدّا إلى ترسّبات الذات الباحثة عن الثبات وتحقيق الانتماء باحتواء الأزمنة المهمّة. لذلك نجد كثيرا من التداخل بين البعدين الزمنيّ والنفسيّ لا سيّما أنّ كليهما ينمّان بشكل أو بآخر عمّا يخالج النفس. يسهم المكان بامتداده الزمنيّ في العمليّة الإنشائيّة فينهض بالمعنى الشعريّ ويحفظ مآثر الشاعر الذاتية ويدوّن أحداث العرب وأيامها.

هوامش:

- 1- الضيّ (المفضّل)، المفضّليّات، تحقيق أحمد شاکر وعبد السلام محمّد هارون، ط7 دار المعارف، [د.ت].
- 2- الفيروزآبادي (مجد الدين)، القاموس المحيط، دار إحياء التراث العربيّ، [د.ت] باب الـ "نون" [فصل الميم]:ص517.
- 3- ابن منظور، لسان العرب، مادة [م، ك، ن]، المجلد 13، ص412-415.
- 4- نفسه، مادة [م، ك، ن]، المجلد 13، ص412-415.
- 5- نفسه، مادة [م، ك، ن]، المجلد 13، ص412-415.
- 6- نفسه، طبعة دار المعارف، ج6، مادة [ز.م.ن.].
- "إنّ الزمان اسم لقليل من الوقت أو كثيره (...). الزمان زمان الرطب والفاكهة وزمان الحر والبرد. ويكون الزمن شهرين إلى ستة أشهر، والزمن يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشهد لك وأزمن الشيء طال عليه الزمان وأزمن بالمكان أقام به زمانا".
- 7- عبد اللطيف الصديقي: الزمان أبعاده وبنيته ط1، المؤسّسات الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1995.
- 8- غاستون باشلار، جدليّة الزمن، المؤسسة العربيّة للطباعة والنشر، ص18.

9- نفسه ص22

10- هيرمان مينكوفسكي Hermann Minkowski : هو عالم رياضيات وفيزياء ألماني روسي المولد من أصل يهودي. ولد في 22 يونيو 1864م وتوفي في 18 يناير 1909م.

11- جون لوك [29 أغسطس 1632 - 28 أكتوبر 1704: فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي. ولد في عام 1632 في رينجتون Wrington في إقليم سومرست وتعلم في مدرسة وستمنستر، ثم في كلية كنيسة المسيح في جامعة أوكسفورد، حيث انتخب طالباً مدى الحياة، لكن هذا اللقب سحب منه في عام 1684 بأمر من الملك. وبسبب كراهيته لعدم التسامح البيوريتاني عند اللاهوتيين في هذه الكلية، لم ينخرط في سلك رجال الدين. وبدلاً من ذلك اخذ في دراسة الطب ومارس التجريب العلمي، حتى عرف باسم (دكتور لوك).

درس جون لوك في كرايست تشيرش في أكسفورد وأصبح طبيباً ومستشاراً للايرال أوف شافتسبري. ثم تحول إلى الفلسفة، فأنتج طوال فترة عملية غير قصيرة مؤلفاً قيماً في موضوع المشكلات التي يستطيع الفهم البشري التعاطي بها

12- عبد اللطيف الصديقي, الزمان أبعاده وبنيته، ط1، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1995 ص79.

13- عبد اللطيف الصديقي, الزمان أبعاده وبنيته، ص 80.

14- بلغ أمر الفصل بين الزمان والمكان في النص الشعري أن جعل لكل منهما جزءاً من الكاتب خاصاً به.

15- علي الغيضاوي، الإحساس بالزمان في الشعر العربي القديم، أطروحة دكتوراه، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تونس 2011.

16- نفسه، ص362-395

يقف الباحث في بعض المواضع على بعض الموصوفات التي من الممكن أن تمثل وجوهاً من الدهر مثل العير والوحش... باعتبارها تجسد صورته التي يتجلى فيها وهي صورة الزامي وصورة معمل الناب المضرس وصورة المخلب الذي ينشط اللحم ص361. وما تثيره الذكريات التي يهيئها الطلل تعبيراً عن الزمان-والتي تشتت في البداية ويعن لها أن تلتبث عند يوم بعينه "يوم بدارة جلجل" ص 362. ورغم هذه الملامح فإن المكان عامة لم يستغله الباحث لمقاربة الزمان ولما ينهض به هذا المكان من وظائف زمانية.

17- نجد ترجمات عدّة للمفضّل الضيّ

- ابن النديم الفهرست , طبعة بيروت, ص102.

- ياقوت الحموي معجم الأدياء, دار الكتاب العربي , بيروت, ج7 ص 117

والمفضّل الضيّ هو أبو العباس بن محمّد بن يعلى بن عامر بن سالم الضيّ, كوفي لغويّ أديب توفّي سنة 178هـ. اشتهر بثقة روايته وعلمه بالشعر واللغة وبحجر قدومه إلى البصرة وقصّة تعليمه للمهديّ. له إلى جانب المفضليّات

- أربعة مؤلفات منها ما هو مطبوع معروف مثل "أمثال العرب" ومنها ما هو مفقود غير موجود مثل "كتاب معاني الشعر" و"كتاب العروض" و"كتاب الألفاظ".
- تعلّم على شيوخ علماء في اللغة والحديث والقراءات والتفسير مثل سَمَّاك بن حرب (ت123هـ) وأبي إسحاق السبّيعي (ت187هـ) وعاصم بن أبي الجود (ت128هـ) ومجاهد بن رومي (ت154هـ) وسليمان بن مهران الأعمش (ت148هـ).
- وتتلّمذ على يديه علماء وشراح شعر ورواة مثل الكسائي (ت189هـ) والقرّاء (ت207هـ) وابن الأعرابي (ت231هـ) والجحدري (ت231هـ).
- 18- مبروك المناعي، المفضليات: دراسة في عيون الشعر العربي القديم، ط1، دار اليمامة للنشر والتوزيع، تونس 1991:
- يشير إلى عدم وجود دراسة شافية للمفضليات.
- وقد وجدت دراسة قامت بها ميّ يوسف خليف، القصيدة الجاهلية في المفضليات، مكتبة غريب [د.ت].
- 19- تميّز النصّ الشعري بين القصيدة والقطعة تميّزا يعتمد التصنيف العددي فالنصّ ذو البيت الواحد يسمّى بيتا وذو البيتين يسمّى نتفة وذو الثلاثة إلى السبعة يسمّى قطعة وما فاق السبعة يسمّى قصيدة. والمفضليات تضمّ مائة وخمس عشرة (115) قصيدة وخمس عشرة (15) قطعة.
- 20- مقدّمة المفضليات، ص10.
- 21- تتمثّل الزيادة في الأبيات (3-7) و (11-15)
- 22- بلاشير، ج1، ص164.
- 23- بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار دار المعارف [د.ت]. ج1 ص73.
- 24- ابن النديم، الفهرست، طبعة بيروت، [د.ت] ص68
- 25- مبروك المناعي، المفضليات: دراسة في عيون الشعر العربي القديم، ص16-17
- 26- علي عبد المعطى، قضايا الفلسفة ومباحثها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1986، ص239.
- 27- المفضل الضبي، المفضليات، ص44: المفضلية: 8(2): لم تقلع: لم تكف.
- 28- المفضل الضبي، المفضليات، ص46: المفضلية: 8(13): دار الحفاظ: التي لا يقيم فيها إلاّ من حافظ على نسبه، الأمرع: الأكثر تحسبا
- 29- المفضل الضبي، المفضليات، ص53: المفضلية: 9(40): أي ذهب الحادثات بهم فصاروا بلدا أي ترابا.
- 30- زكريا إبراهيم، مشكلة الفنّ، مكتبة مصر، [د.ت]، ص35.
- 31- قصّة هذه القصيدة مفصّلة في خزنة الأدب، ج2، ص16-17.

- 32- المفضل الضبي، المفضليات، ص29: المفضلية:1(16-17-18): القلة: أعلى الجبل، ضحيانة: بارزة للشمس، محراق: يحرق من فيها،
الريد: أعلى الجبل، النعامة: خشبات في أعلى الجبل يأوي إليها الربيعة، هزيم: متكسر.
- 33- المفضل الضبي، المفضليات، ص46: المفضلية: 8(27): مناخ: موضع إناحة الإبل، التثية: التملكث والإنتظار، الحدثان: نوب الدهر وحوادثه.
- 34- المفضل الضبي، المفضليات، ص130: المفضلية: 24(14): الأحسية: المرأة من حمس وهم قريش وخزاعة وبنو عامر وكنانة، عليه: على البيض، الحاسر: التي تكشف رأسها ووجهها إدلالا على الحسن.
- 35- المفضل الضبي، المفضليات، ص110: المفضلية: 20(13): حجر: أحيط، ريح: أصابتها ريح فجاءت بنسيمها، طلّت: أصابها الطل وهو الندى.
- 36- مي يوسف خليف، القصيدة الجاهلية في المفضليات، ص27.
- 37- المفضل الضبي، المفضليات، ص132: المفضلية 25 (1).
- 38- المفضل الضبي، المفضليات، ص174: المفضلية 35(3).
- 39- المفضل الضبي، المفضليات، ص237: المفضلية: 54(2).
- 40- المفضل الضبي، المفضليات، ص412: المفضلية: 124(1-2).
- 41- المفضل الضبي، المفضليات، ص174: المفضلية: 35(1).
- 42- المفضل الضبي، المفضليات، ص132: المفضلية: 25(2-3).
- 43- المفضل الضبي، المفضليات، ص259: المفضلية: 64(2-3).
- 44- المفضل الضبي، المفضليات، ص258: المفضلية: 64(1).
- 45- المفضل الضبي، المفضليات، ص247: المفضلية: 57(1).
- 46- المفضل الضبي، المفضليات، ص105: المفضلية: 19(2-3).
- 47- المفضل الضبي، المفضليات، ص345: المفضلية: 99(2).
- 48- زكريا إبراهيم، مشكلة الإنسان، ص76:
- "ولكننا ننسى أن التحرك في المكان هو مجرد ابتعاد، أما التحرك في الزمان فإنه ابتعاد ليس افتراق ... أجل إنَّ الزمان ينأى بنا عن ماضينا ولكنه لا يفصلنا تماما عن هذا الماضي".
- 49- عبد اللطيف الصديقي، الزمان أبعاده وبنيته، ص 145.
- 50- المفضل الضبي، المفضليات، ص247: المفضلية: 57(2).
- 51- المفضل الضبي، المفضليات، ص173: المفضلية: 35(2).
- 52- المفضل الضبي، المفضليات، ص181: المفضلية: 38(4).

- 53- زكريا إبراهيم، مشكلة الإنسان، ص72.
- 54- المفضل الضبي، المفضليات، ص31: المفضلية الثانية.
- 55- المحافظ الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط3، المجمع العلمي ببيروت، 1969 [باب الخيل].
- 56- المفضل الضبي، المفضليات، ص32: المفضلية: 2(3-6).
- 57- المفضل الضبي، المفضليات، ص112: المفضلية: 20(31).
- 58- المفضل الضبي، المفضليات، ص136: المفضلية: 26(7).
- 59- المفضل الضبي، المفضليات، ص166: المفضلية: 32(4).
- 60- المفضل الضبي، المفضليات، ص186: المفضلية: 38(29-30-32-35-37).
- 61- ذكرت في المفضليات جملة من أيام العرب:
- يوم الرقم: انتصرت فيه غطفان على بني عامر: المفضلية 5 و المفضلية 107.
- يوم ذي علق: بين بني عامر بن صعصعة رهط الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب بن عامر وبني أسد رهط الحميج: المفضلية: 7.
- يوم دارة موضوع: أحلبت فيه بنو سعد ذبيان على بني سهم بن مرة: المفضلية 12.
- يوم ذات الرمث: المفضلية 13.
- يوم الكلاب الثاني بين مذحج من أهل اليمن وبني تميم: المفضلية 32 و30.
- يوم ذي نجب (بعد يوم جيلة بعام) المفضلية 118.
- يوم شعب جيلة: أعظم أيام العرب: المفضلية 121.
- يوم بزاحة المفضلية 32 وطخفة المفضلية 30 والكلاب المفضلية 32 وذات السليم المفضلية 37 والنسار المفضليات 30-96-99-38 وعنيزة المفضلية 83(3) والمشقرة المفضلية 6 وفيف الريح المفضلية 9.
- 62- شاكر عبد الحميد، التفضيل الجمالي "دراسة في سيكولوجية التدوق الفني"، عالم المعرفة، عدد 267، مارس 2001، ص 316: "يمكننا تعريف الشعر بأنه لغة خيالية مكثفة (...). إلا أنّ الشعر يميّز بشكل عام عن الأشكال الأدبية الأخرى من خلال ذلك الشكل المكثف الذي يكتب به (...). وأيضا من خلال الصور".
- 63- فاروق خورشيد، أديب الأسطورة عند العرب: جذور التفكير وأصالة، عالم المعرفة، عدد 284، أوت 2002. تحدث في فصل مطوّل عن أسطورة المكان ص 43-96، ويرى أنّ بعض الأساطير التي ارتبطت بالمكان من الواضح أنّها بنت نسيجها الإبداعي على المكان لتجعل التسمية ذات دلالة ... وإضفاء عنصر أسطوري على الاسم الموجود أصلا يغلف اسم المكان نفسه بغلالة حلوة من الخيال البكر والعاطفة الراقية" ص69.

- 64- عبد الرحمان محمد القعود, الإبحام في شعر الحداثة: العوامل والمظاهر وآليات التأويل, عالم المعرفة, ع279, مارس 2002, ص 350.
- 65- زكريا إبراهيم, مشكلة الإنسان, ص 76.